الحلقة (٣٠)

وتوسل محمد صلى الله عليه وسلم إلى ربه بربوبية جبريل وميكائل وإسرافيل أن يهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنه، إذ حياة القلب بالهداية، وقد وكل الله هؤلاء الثلاثة بالحياة، فجبريل موكل بالوحي الذي هو سبب حياة القلوب، وميكائل بالقطر الذي هو سبب حياة الأبدان وسائر الحيوان، وإسرافيل بالنفخ بالصور الذي هو سبب حياة العالم وعود الأرواح إلى أجسادها، فالتوسل إلى الله سبحانه بربوبية هذه الأرواح العظيمة الموكلة بالحياة له تأثير عظيم في حصول المطلوب، والله المستعان.

قول الطحاوي رحمه الله "**ولا يصح الإيمان بالرؤية لأهل دار السلام لمن اعتبرها منهم بوهم، أو تأولها بفهم، إذا كان تأويل الرؤية وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبية، ترك التأويل، ولزوم التسليم، وعليه دين المسلمين، ومن لم يتوقَ النفي والتشبيه زل ولم يصب التنزيه**".

فالشيخ رحمه الله يشير إلى الرد على المعتزلة ومن يقول بقولهم في نفي الرؤية، وعلى من يشبه الباري بشيء من مخلوقاته، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال (إنكم ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر) الحديث.

فأدخل النبي (كاف) التشبيه على (ما) المصدرية الموصولة بـ (ترون)، التي تنحلّ إلى المصدر الذي هو الرؤية، فيكون التشبيه في الرؤية لا في المرئيّ، وقد سبق الكلام على ذلك، وهذا بين واضح في أن المراد إثبات الرؤية وتحقيقها، ودفع الاحتمالات عنها، وماذا بعد هذا البيان وهذا الإيضاح من النبي صلى الله عليه وسلم؟!

وهل يحتمل هذا النص أن يكون معناه: إنكم تعلمون ربكم كما تعلمون القمر ليلة البدر؟! ويستشهد لهذا التأويل الفاسد بقوله تعالى {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ} وغير ذلك مما استعمل فيه (رأى)، التي هي من أفعال القلوب، ولا شك أن رأى تارة تكون بصرية، وتارة تكون قلبية، وتارة تكون من رؤيا الحلم، وغير ذلك.

ولكن ما يخلو الكلام من قرينة تخلص أحد معانيه من الباقي، وإلا لو أخلى المتكلم كلامه من القرينة المخلصة لأحد المعاني، لكان مجملا ملغزا لا مبينا موضحا، وأي بيان وقرينة فوق قوله صلى الله عليه وسلم (ترون ربكم كما ترون الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب) فهل مثل هذا مما يتعلق برؤية البصر أو برؤية القلب؟ بل برؤية البصر، وهل يخفى مثل هذا إلا على من أعمى الله قلبه!

فإن قال المعتزلة المنكرون لصفة الرؤية (رؤية الباري في الآخرة) ألجانا إلى هذا التأويل حكم العقل بأن رؤيته محال لا يتصور إمكانها.

فالجواب: أن هذه دعوى منكم خالفكم فيها أكثر العقلاء، وليس في العقل ما يحيلها، بل لو عرض موجود قائم بنفسه لا يمكن رؤيته، لحُكم بأن هذا محال، هم يستدلون ويحتجون بأن العقل يُحيل أن يرى الباري ولا يتصور أنه يرى.

وقول المؤلف رحمه الله "**لمن اعتبرها منهم بوهم**" أي توهم أن الله تعالى يُرى على صفة كذا، فيتوهم تشبيها، ثم بعد هذا التوهم إن أثبت ما توهمه من الوصف فهو مشبه، إن نفى أحد الرؤية من أصلها لأجل هذا التوهم فهو جاحد معطل، بل الواجب دفع ذلك الوهم وحدّه، ولا يعم بنفيه الحق والباطل، فينفيهما رداً على من أثبت الباطل، بل الواجب رد الباطل وإثبات الحق، وإلى هذا المعنى أشار الشيخ رحمه الله بقوله : "ومن لم يتوقَ النفي والتشبيه زل ولم يصب التنزيه، فإن هؤلاء المعتزلة يزعمون أنهم ينزهون الله بهذا النفي، وهل يكون التنزيه بنفي صفة الكمال، فإن **نفي الرؤية ليس من صفة كمال، إذ المعدوم لا يرى، وإنما الكمال في إثبات الرؤية ونفي إدراك الرائي له إدراك إحاطة، كما في العلم، فإن نفي العلم به ليس بكمال.**

فلا نقول لا نعلم الله، وإنما الكمال بإثبات العلم، ونفي الإحاطة به علما، فهو سبحانه وتعالى لا يحاط به رؤية، كما لا يحاط به علما، فنحن نعلم الله، وسيراه المؤمنون جزما في الآخرة، لكن هذه الرؤية تختلف عن الإحاطة، وقد تجتمع الرؤية والإحاطة، وقد لا تجتمع، كيف ذلك شرحناه سابقا، ومسألة الرؤية مثل مسألة العلم، فالناس يعلمون ربهم، ولكنهم لا يحيطون به علما، فهم كذلك في الآخرة، يرون ربهم ولكنهم لا يحيطون به.

وقول المؤلف : "**أو تأولها بفهم**" أي ادعى أنه فهم لها تأويلا يخالف ظاهرها، وما يفهمه كل عربي من معناها فإنه قد صار اصطلاح المتأخرين في معنى التأويل، أنه صرف اللفظ عن ظاهره، وبهذا تسلط المحرفون على النصوص.

وقالوا نحن نأول ما يخالف قولنا، فسموا التحريف تأويلا، تزيينا له وزخرفة، ليقبل، -في الحقيقة هو تحريف وليس تأويل- وقد ذم الله الذين زخرفوا الباطل بقوله تعالى {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا}والعبرة للمعاني لا للألفاظ، فكم من باطل قد أقيم عليه دليل مزخرف عورض به دليل الحق.

وكلامه هنا نظير قوله فيما تقدم: لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا، ولا متوهمين بأهوائنا، ثم أكد هذا المعنى بقوله : "**إذ كان تأويل الرؤية وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبية ترك التأويل ولزوم التسليم وعليه دين المسلمين**".

والمراد هو ترك التأويل الذي يسمونه تأويلا وهو تحريف، لكن الشيخ رحمه الله تأدب وجادل بالتي هي أحسن، كما أمر الله تعالى بقوله {وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}، وليس مراده ترك كل ما يسمى تأويلا، ولا ترك شيء من الظواهر لبعض الناس لدليلٍ راجح من الكتاب والسنة، وإنما مراد الطحاوي ترك التأويلات الفاسدة المبتدعة المخالفة لمذهب السلف الصالح، التي يدل الكتاب والسنة على فسادها، وترك القول على الله بلا علم.

فمن التأويلات الفاسدة تأويل أدلة الرؤية، وتأويل صفة الكلام، وأدلة العلو، وأنه لم يكلم موسى

تكليما سبحانه، ولم يتخذ إبراهيم خليلا، -كما كانت هذه الفتنة التي جاء بها الجعد، وقتله خالد بن عبد الله القسري الأموي-، ثم صار لفظ التأويل مستعملا في غير معناه الأصلي، والتأويل في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، فتأويل الخبر هو عين المخبر به، وتأويل الأمر نفس الفعل المأمور به، كما قالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه (سبحانك اللَّهُمَّ ربنا وبحمدك اللَّهُمَّ اغفر لي، يتأول القرآن) وقال تعالى {هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَق} فمنه تأويل الرؤيا، وتأويل العمل، كقوله {هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ} وقوله {وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيث} {ذلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} وقوله {سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} وقوله {ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا} **فمن ينكر وقوع مثل هذا التأويل والعلم بما تعلق بالأمر والنهي منه، أما ما يتعلق بما كان خبرا كالإخبار عن الله وعن اليوم الآخر فهذا لا يعلم تأويله إلا الله.**